

ألف ليلة وليلة

من نوار هارون الرشيد مع الشاب العماني

من نوادر هارون الرشيد مع الشاب العماني

ومما يحكى أيضاً أن الخليفة هارون الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فاستدعى مسروراً فحضر فقال له: انتني بجعفر بسرعة فمضى وأحضره، فلما حضر وقف بين يديه قال له: يا جعفر قد اعتراني في هذه الليلة أرق فمضت عني النوم ولا أعلم ما يزيله عني قال: يا أمير المؤمنين قد قالت الحكماء: النظر إلى المرأة ودخول الحمام واستعمال الغناء يزِيل الهم والفكر فقال: يا جعفر أني قد فعلت هذا كله فلم يزل عني شيئاً وأنا أقسم بأبائي الطاهرين أن لم تتسبب فيما يزِيل عني ذلك لأضربن عنقك قال: يا أمير المؤمنين هل تفعل ما أشير به عليك؟ قال الخليفة: وما الذي تشير به علي؟ قال: أن تنزل بنا في زورق ونحدر به في بحر الدجلة مع الماء إلى محل يسمى قرن الصراط لعلنا نسمع أو ننظر ما لم ننظر فإنه قد قبل تفريج الهم بواحدٍ من ثلاثة أمور وأن يرى الإنسان ما لم يكن رآه أو يسمع ما لم يكن سمعه أو يطأ أرضاً ما لم يكن وطئها فلعل ذلك يكون سبباً في زوال القلق عنك يا أمير المؤمنين. فعند ذلك قام الرشيد من موضعه وصحبته جعفر وأخوه الفضل وأبو اسحق النديم وأبو نواس وأبو دلف ومسرور والصيد.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الرابعة والأربعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الخليفة لما قام من موضعه وصحبته جعفر وباقي جماعته دخلوا حجرة الثياب ولبسوا كلهم ملابس التجار وتوجهوا إلى الدجلة ونزلوا في زورق مزركش بالذهب وانحدروا مع الماء حتى وصلوا إلى الموضع الذي يريدونه فسمعوا أصواتاً جارية تغني على العود وتتشد هذه الأبيات:

قولٌ وقد حضر العقار	وقد غنى على الأيك الهزار
إلى كم ذا التائي عن سرور	أفق ما العمر إلا مستعار
فخذها من يدي ظبي غرير	بجفنيه فتورٌ وانكسار
زرعت بخده ورداً طرياً	فأتمر في السوالف جئار
وتحسب موضع التخميس	فيه رمادا خامداً والخدنار
يقول لي العزول تسل عنه	فما عذري وقد تم العذار

فلما سمع الخليفة هذا الصوت قال: يا جعفر ما أحسن هذا الصوت قال جعفر: يا مولانا ما طرق سمعي أطيب ولا أحسن من هذا الغناء ولكن يا سيدي أن السماع من وراء جدار نصف سماع فكيف بالسماع من خلف ستر فقال: انهض بنا يا جعفر حتى نتطفل على صاحب هذه الدار لعلنا نرى المغنية عياناً، قال جعفر: سمعاً وطاعة فصعدوا من الكوكب واستأذنوا في الدخول وإذا بشابٍ مليح المنظر عذب الكلام فصيح اللسان خرج إليهم وقال: أهلاً وسهلاً يا سادتي المنعمين علي أدخلوا بالرحب والسعة فدخلوا وهو بين أيديهم فرأوا الدار بأربعة أوجه وسقفها بالذهب وحيطانها منقوشة بالأزورد وفيها إيوانٌ به سدبة جميلة وعليها مائة جارية كأنهن أقمار فصاح عليهن فنزلن عن أسرتهن ثم التفت رب المنزل إلى جعفر وقال: يا سيدي أنا ما أعرف منكم الجليل من الأجل بسم الله ليتفضل منكم من هو أعلى في الصدر ويجلس أخوانه كل واحد في مرتبته فجلس كل واحد في منزلته وقام مسرورٌ في الخدمة بين أيديهم، ثم قال لهم صاحب المنزل عن أذنكم هل أحضر لكم شيئاً من المأكول؟ قالوا له: نعم. فأمر الجوارى بإحضار الطعام فأقبل أربع جوار مشدودات الأوساط بين أيديهن مائدةٌ وعليها من غرائب الألوان مما درج وطار وسيح في البحار من قطاً وسماني وأفراخ وحمم ومكتوب على حواشي السفرة من الأشعار ما يناسب المجلس فأكلوا على قدر كفايتهم ثم غسلوا أيديهم فقال الشاب: يا سادتي أن كان لكم حاجة فأخبرونا بها حتى نتشرف بقضائها قالوا: نعم فأنا ما جننا منزلك إلا لأجل صوت سمعناه من وراء حائط دارك فاشتبهنا أن نسمعه ونعرف صاحبه فإن رأيت أن تنعم علينا بذلك كان من مكارم أخلاقك ثم نعود من حيث جننا. قال: مرحبا بكم. ثم التفت إلى جارية سوداء وقال: أحضري سيدتك فلانة. فذهبت الجارية ثم جاءت ومعها كرسي فوضعت ثم ذهبت ثانية وأتت جارية كأنها البدر في تمامه فجلست على الكرسي أمام الجارية السوداء وناولتها خرقة من أطلس فأخرجت منها عوداً مرصعاً بالجواهر واليواقيت وملأوا من الذهب.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخامسة والأربعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجارية لما أقبلت جلست على كرسي وأخرجت العود من الخريطة وإذا هو مرصع بالجواهر واليواقيت وملأوه من الذهب فشدت أوتاره لرنات المزاهر وهي كما قال فيها وفي عودها الشاعر:

في حجرها وجلت عليه ملاويه
إلا وأصلحت اليسار مدويه

حضنته كالأم الشفيقة بابنها
ما حركت يدها اليمين لجه

ثم ضمت العود إلى صدرها وانحنيت عليه انحناء الوالدة على ولدها وجست أوتاراه فاستغاثت كما يستغيث الصبي بأمه، ثم ضربت عليه وجعلت تنشد هذه الأبيات:

جاد الزمان بمن أحب فاعتبأ
من خمره ما مزحت قلب امريء
قام النسيم يحملها في كأسها
كم ليلة سامرت فيها بدرها
والبدر يجنح للغروب كأنما
يا صاحبي فأدر كؤوسك واشربا
إلا وأصبح بالمسرة مطربا
أرايت بدر النثم يحمل كوكبا
من فوق دجلة قد أضاء الغيها
قد مد فوق الماء سيفاً مذهباً

فلما فرغت من شعرها بكت بكاءً شديداً وصاح كل من في الدار من البكاء حتى كادوا أن يهلكوا وما منهم أحدٌ إلا وغاب عن وجوده ومزق أثوابه ولطم على وجهه لحسن غنائها فقال الرشيد: أن غناء هذه الجارية يدل على أنها عاشقة مفارقة فقال سيدها: أنها تاكله لأمها وأبيها فقال الرشيد: ما هذا بكاء من فقد أباه وأمّه وإنما هو شجو من فقد محبوبه وطرب الرشيد من غنائها وقال لأبي اسحق: والله ما رأيت مثلها فقال أبو اسحق: يا سيدي أني لأعجب منها غاية العجب ولا أملك نفسي من الطرب وكان الرشيد مع ذلك كله ينظر إلى صاحب الدار ويتأمل في محاسنه وظرف شمائله فرأى في وجهه اصفراراً فالتفت إليه وقال: يا فتى فقال: لبيك يا سيدي فقال له: هل تعلم من نحن؟ قال: لا فقال له جعفر: أتحب أن نخبرك عن كل واحدٍ باسمه؟ فقال: نعم فقال جعفر: هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين وذكر له بقية أسماء الجماعة وبعد ذلك قال الرشيد: أشتهي أن تخبرني عن هذا الاصفرار الذي في وجهك هل هو مكتسبٌ أو أصلي من حين ولادتك؟ قال: يا أمير المؤمنين أن حديثي غريب وأمري عجيب لو كتب بالإبر على أفاق البصر لكان عبرةً لمن أعتبر.

قال: أعلمني به لعل شفاءك يكون على يدي قال: يا أمير المؤمنين أعزني سمعك، وأخلي لي ذرعك قال: هات فحدثني فقد شوقنتني إلى سماعه.

فقال: اعلم يا أمير المؤمنين أني رجلٌ تاجرٌ من تجار البحر، وأصلي من مدينة عمان وكان أبي تاجراً كثير المال وكان له ثلاثون مركباً تعمل في البحر أجرتها في كل عام ثلاثون ألف دينار وكان رجلاً كريماً وعلمني الخط وجميع ما يحتاج إليه الشخص فلما حضرته الوفاة دعاني وأوصاني بما جرت به العادة ثم توفاه الله تعالى إلى رحمته وأبقى الله أمير المؤمنين وكان لأبي شركاءً يتجرون في ماله ويسافرون في البحر فاتفق في بعض الأيام أني كنت قاعداً في منزلي مع جماعةٍ من التجار إذ دخل علي غلامٌ من غلماني وقال: يا سيدي أن الباب رجلاً يطلب الإذن في الدخول عليك فأذن له فدخل وهو حامل على رأسه شيئاً مغطى فوضعه بين يدي وكشفه فإذا فيه فواكه بغير أوان وملح وطرائف ليست في بلادنا فشكرته على ذلك وأعطيته مائة دينار وانصرف شاكرًا، ثم فرقت ذلك على كل من كان حاضراً من الأصحاب.

ثم سألت التجار: من أين هذا؟ فقالوا: أنه من البصرة وأثنوا عليه وصاروا يصفون حسن البصرة وأجمعوا على أنه ليس في البلاد أحسن من مدينة بغداد ومن أهلها وصاروا يصفون بغداد وحسن أخلاقها وأهلها وطيب هوائها وحسن تركيبها فاشتاقت نفسي إليها وتعلقت آمالي برؤيتها فقامت وبعثت العقار والأملك وبعثت المراكب بمائة ألف دينار وبعثت العبيد والجواري وجمعت مالي فصار ألف دينار غير المعادن والجواهر وأكثريت مركباً وشحنتها بأموالي وسائر متاعي وسافرت بها أياماً وليالي حتى جئت إلى البصرة فأقامت بها مدةً ثم استأجرت سفينةً وأنزلت مالي فيها وسرنا منحدرين أياماً قللاً حتى وصلنا إلى بغداد فسألت أين تسكن التجار وأي موضع أطيب للسكان؟ فقالوا: في حارة الكرخ فجئت إليها واستأجرت داراً في درب يسمى درب الزعفران ونقلت جميع مالي إلى تلك الدار وأقامت بها مدةً.

ثم توجهت في بعض الأيام إلى الفرجة ومعني شيءٌ من المال وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فأتيت إلى جامع يسمى جامع المنصور تقام فيه الجمعة وبعد أن خلصنا من الصلاة خرجت مع الناس إلى موضع يسمى قرن الصراط فرأيت في ذلك المكان موضعاً عالياً جميلاً وله روشنٌ مطلقٌ على الشاطئ وهناك شباكٌ فذهبت من جملة الناس إلى ذلك المكان فرأيت شيخاً جالساً وعليه ثيابٌ جميلةٌ ونفوحٌ منه رائحةٌ طيبةٌ وقد شرح لحيته فافتقرت على صدره فرقتين كأنها قضيبٌ من لجين وحوله أربع جوارٍ وخمسة غلمانٍ فقلت لشخص ما اسم هذا

الشيخ وما صنعته؟ فقال: هذا طاهر ابن العلاء وهو صاحب الفتيان وكل من دخل عنده يأكل ويشرب وينظر إلى الملاح فقلت له: والله أن لي زماناً وأنا أدور على مثل هذا.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السادسة والأربعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب لما قال: والله أن لي زماناً وأنا أدور على مثل هذا، ثم قال: فتقدمت إليه يا أمير المؤمنين وسلمت عليه، وقلت له: يا سيدي أن لي عندك حاجة، فقال: ما حاجتك؟ قلت: أشتهي أن أكون ضيفك في هذه الليلة فقال: حياً وكرامةً ثم قال: يا ولدي عندي جوارٌ كثيرةٌ منهن من ليلتها بعشرة دنائير ومنهن من ليلتها بأكثر فأختر من تريد فقلت: أختار التي ليلتها بعشرة دنائير، ثم وزنت له ثلثمائة دينار عن شهر فسلمني للغلام فأخذني ذلك الغلام وذهب بي إلى حمام القصر وخدمني خدمةً حسنةً فخرجت من الحمام وأتى بي إلى مقصورةٍ وطرق الباب فخرجت له جاريةً فقال له: خذي ضيفك فتلقنتني بالرحب والسعة ضاحكةً مستبشرةً وأدخلتني داراً عجيبةً مزركشةً بالذهب فتأملت في تلك الجارية فرايتها كالبدر ليلةً تمامه وفي خدمتها جارتان كأنهم كوكبان ثم أجلستني وجلست بجاني ثم أشارت إلى الجوارى فأتين بماندةٍ فيها من أنواع اللحوم من دجاج وسماني وقطاً وحمام فأكلنا حتى اكتفينا وما رأيت في عمري أذ من ذلك الطعام، فلما أكلنا رفعت تلك المائدة وأحضرت مائدة الشراب والمشوم والحلوى والفواكه وأقمت عندها شهراً على هذا الحال، فلما فرغ الشهر دخلت الحمام وجئت إلى الشيخ وقلت له: يا سيدي أريد التي ليلتها بعشرين ديناراً فقال: أرني الذهب فمضيت وأحضرت الذهب فوزنت له ستمائة دينار عن شهر فنادى غلاماً وقال لله: خذ سيدك فأخذني وأدخلني الحمام فملا خرجت أتى بي إلى باب مقصورةٍ وطرقه فخرجت جاريةً، فقال لها: خذي ضيفك فتلقنتني بأحسن ملتقى وإذا حولها أربع جوارى ثم أمرت بإحضار الطعام فحضرت مائدة عليها من سائر الأطعمة فأكلت ولما فرغت من الأكل ورفعت المائدة فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات:

أيا نفحات المسك من أرض بابل
بعق غرامي أن تؤدي رسائلي
عهدت بهاتيكَ الأراضي منازل
لأحبابنا أكرم بها من منازل
وفيها التي ما حبها كل عاشق
تغني ولم يرتد منها بطائل

فأقمت عندها شهراً ثم جئت إلى الشيخ وقلت: أريد صاحبة الأربعين ديناراً فقال: أزن لي الذهب فوزنت له عن شهر ألفاً ومانتي ديناراً ومكثت عندها شهراً كأنه يومٌ واحدٌ لما رأيت من حسن المنظر وحسن العشرة. ثم جئت إلى الشيخ وكنا قد أمسينا فسمعت ضجةً عظيمةً وأصواتاً عاليةً فقلت له: ما الخبر؟ فقال لي الشيخ: أن هذه الليلة عندنا أشهر الليالي وجميع الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها فهل لك أن تصعد على السطح وتتفرج على الناس فقلت: نعم وطلعت على السطح فראيت ستارةً حسنةً ووراء الستارة محلٌ عظيمٌ وفيه سدةٌ وعليها فرشٌ مليحٌ وهناك صبيةٌ تدهش الناظرين حسناً وجمالاً وقدأ واعتدالاً وبجانبها غلاماً يده على عنقها وهو يقبلها فلما رأيتها يا أمير المؤمنين لم أملك نفسي ولم أعرف أين أنا لما بهرني من حسن صورتها فلما نزلت الجارية التي أنا عندها وأخبرتها بصفتها فقالت: ما لك وما لها؟ فقلت: والله أنها أخذت عقلي فتبسمت وقالت: يا أبا الحسن ألك فيها غرض؟ فقلت: أي والله فأنها تملك قلبى ولبي فقالت: هذه ابنة طاهر بن العلاء وهي سيدتنا وكلنا جوارياها أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها؟ قلت: لا قالت: بخمسائة دينار وهي حسرةٌ في قلوب الملوك فقلت: والله لأذهبن مالي كله على هذه الجارية وبيت أكابد الغرام وطول ليلى فلما أصبحت دخلت الحمام ولبست أفرح ملابس من ملابس الملوك وجئت إلى أبيها وقلت: يا سيدي أريد التي ليلتها بخمسائة دينار فقال: زن الذهب فوزنت له عن كل شهر عشرة آلاف دينار فأخذها ثم قال للغلام: أعمد به إلى سيدتك فلانة فأخذني وأتى بي إلى دار لم تر عيني أظرف منها على وجه الأرض.

فلما دخلت رأيت الصبية جالسةً فلما رأيتها اندهش عقلي بحسنها يا أمير المؤمنين وهي كالبدر في ليلة أربعة عشر ذات حسن وجمالٍ وقد اعتدال وألفاظ تفضح رنات المزاهر كأنها المقصود الشاعر:

قالت وقد لعب الغرام بعطفها
يا هل ترى لي في دجاك مسامرٌ
في جنح ليل سابل الأحلاك
ضربت عليه بكفها وتنهدت
أو هل لهذا الكس من نياك
والثغر بالمسواك يظهر حسنه
كتنهد الأسف الحزين الباكي
يا مسلمون أما تقوم أيوركم
والأير للاكساس كالمسواك
فانفض من تحت الغلائل قائماً
ما فيكم أحد يغيث الشاكي
أيري وقال لها أتاك أتاك
من أنت قلت فتى أجاب نداك
وحللت عقد أزارها فتفرعت

وغدوت أرهزها بمثل ذراعها
حتى إذا ما قمت بعد ثلاثة
رهز اللطيف يضر بالأوراك
قالت هناك النيك قلت هناك

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السابعة والأربعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب لما حدث أمير المؤمنين بصفات الجارية وأنشد في حسنها الأبيات المتقدمة ثم أنشد هذه الأبيات:

ولو أنها للمشركين تعرضت
ولو تقلت في البحر مالح
لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا
لخلي سبيل الشرق وأتبع الغربا
ولو أنها في الشرق لاحت لراهب

وما أحسن قول الآخر:

نظرت إليها نظرة فتغيرت
فأوحى إليهم الوهم أي أحبها
دقائق فكري في بديع صفاتها
فأثر ذاك الوهم في جناتها

فسلمت عليها فقالت: أهلاً وسهلاً ومرحباً وأخذت بيدي يا أمير المؤمنين وأجلستني إلى جانبها فمن فرط الإشتياق بكيت حماقة الفراق وأسبلت دمع العين وأنشدت هذين البيتين:

أحب ليالي الهجر لا فرحاً بها
وأكره أيام الوصال لأنني
عسى الدهر يأتي بعدها بوصال
أرى كل شيء معقباً بزوال

ثم أنها صارت تؤانسني بلطف وأنا غريقٌ في بحر الغرام خائف في القرب ألم الفراق من فرط الوجد والإشتياق وتذكرت لوعة النوى والبين فأنشدت هذين البيتين:

فكرت ساعة وصلها في هجرها
فطفت أمسح مقلتي في جيدها
فجرت مدامع مقلتي كالعندم
من عادة الكافور إمساك الدم

ثم أمرت بإحضار الأطعمة فأقبلت أربع جوار نهد أبكار فوضعن بين أيدينا من الأطعمة والفاكهة والحلوى والمشوم والدمام ما يصلح للملوك فأكلنا يا أمير المؤمنين وجلسنا على المدام وحولنا الرياحين في مجلس لا يصلح إلا للملك ثم جاءت يا أمير المؤمنين جارية بخريطة من الأبرسيم فأخذتها وأخرجت منها عوداً فوضعتها في حجرها وجست أوتاره فاستغاثت كما يستغيث الصبي بأمه وأنشدت هذين البيتين:

لا تشرب الراح إلا من يدي رشاً
أن الدمامة لا يلتذ شاربها
تحيكه في رقة المعنى ويحيكها
حتى يكون نقي الخد ساقبها.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الثامنة والأربعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب قال: لما أنشدت هذين البيتين فأقمت يا أمير المؤمنين عندها على هذه الحالة مدة من الزمان حتى نفذ جميع مالي فتذكرت وأنا جالسٌ معها مفارقتها فنزلت دموعي على خدي كالأنهار وصرت لا أعرف الليل من النهار فقالت: لأي شيء تبكي؟ فقلت لها: يا سيدتي من حين جئت إليك وأبوك يأخذ مني في كل ليلة خمسمائة دينار وما بقي عندي شيء من المال وقد صدق قول الشاعر حيث قال:

الفقر في أوطاننا غربه
والمال في الغربة أوطان

فقالت: أعلم أن أبي من عادته أنه إذا كان عنده تاجرٌ وافتقر فإنه يضيفه ثلاثة أيام ثم بعد ذلك يخرج فلا يعود إلينا أبداً ولكن أكرم شرك وأخف أمرك وأنا أعمل حيلة في اجتماعي بك إلى ما شاء الله فإن لك في قلبي محبة عظيمة وأعلم أن جميع مال أبي تحت يدي وهو لا يعرف قدره فأنا أعطيك في كل يوم كيساً فيه خمسمائة دينار وأنت تعطيه لأبي وتقول له: ما بقيت أعطي الدراهم إلا يوماً بيوم وكل ما دفعته إليه فإنه يدفعه إلى وأنا أعطيه لك وتستمر هكذا إلى أن شاء الله فشكرتها على ذلك وقبلت يدها. ثم أقمت عندها يا أمير المؤمنين على هذه

الحالة مدة سنة كاملة فاتفق في بعض الأيام أنها ضربت جاريتها ضرباً وجيعاً فقالت لها: والله لأوجعن قلبك كما أوجعتيني ثم مضت تلك الجارية إلى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله إلى آخره فلما سمع طاهر بن العلاء كلام الجارية قام من وقته وساعته ودخل علي وأنا جالس مع ابنته وقال لي: فلان قلت له: لبيك قال: عادتنا انه إذا كان عندنا تاجر وافقتر أننا نضيفه عندنا ثلاثة أيام وأنت لك عندنا سنة تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء. ثم التفت إلى غلمانها وقال: اخلعوا ثيابه ففعلوا وأعطوني ثياباً رديئة قيمتها خمسة دراهم ودفعوا إلي عشرة دراهم ثم قال له: أخرج فأنا لا أضربك ولا أشتكك واذهب إلى حال سبيلك وأن أقممت في هذه البلدة كان دمك هدراً فخرجت يا أمير المؤمنين رغم أنفي ولا أعلم أين أذهب وحل قلبي كل هم في الدنيا وشغلني الوسواس وقلت في نفسي كيف أجيء في البحر بألف ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركباً ويذهب هذا كله في دار هذا الشيخ النحس وبعد ذلك أخرج من عنده عريانا مكسور القلب؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم أقممت في بغداد ثلاثة أيام لم أذق طعاماً ولا شرباً وفي اليوم الرابع رأيت سفينة متوجهة إلى البصرة فنزلت واستكرت مع صاحبها إلى أن وصلت إلى البصرة فدخلت السوق وأنا في شدة الجوع فرأني رجل يقال فقام إلي وعانقني لأنه كان صاحباً لي ولأبي من قبلي وسألني عن حالي فأخبرته بجميع ما جرى لي فقال لي: والله ما فعال عاقل ومع هذا الذي جرى لك فأني شيء في ضميرك تريد أن تفعله؟ فقلت له: لا أدري ماذا أفعل فقال: أتجلس عندي وتكتب خرجي ودخلي ولك في كل يوم درهم زيادة على أكلك وشربك؟ فأجبته وأقممت عنده يا أمير المؤمنين سنة كاملة أبيع واشتري إلى أن صار معي مائة دينار فاستأجرت غرفة على شاطئ البحر لعل مركباً تأتي ببضاعة فاشتري بالدنانير بضاعة وأتوجه إلى بغداد فاتفق في بعض الأيام أن المراكب جاءت وتوجهت إليها جميع التجار يشتررون فرحت معهم وإذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ونصبا لهما كرسيين وجلسا عليهما ثم أقبل التجار عليها لأجل الشراء فقال لبعض الغلمان: أحضروا البساط فأحضره وجاء واحدٌ بخرج منه جراباً وفتحته وكبه على البساط وإذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والعقيق من سائر الألوان.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة التاسعة والأربعين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب لما أخبر الخليفة بقضية التجار وبالجراب وما فيه من سائر أنواع الجواهر قال: يا أمير المؤمنين ثم أن واحداً من الرجلين الجالسين على الكراسي التفت إلى التجار وقال لهم: يا معشر التجار أنا ما أبيع في يومي هذا لأنني تعبان فتزايدت التجار في الثمن حتى بلغ مقداره أربعمائة دينار فقال لي صاحب الجراب وكان بيني وبينه معرفة قديمة لماذا لم تتكلم ولم تزود مثل التجار؟ فقلت له: والله يا سيدي ما بقي عندي شيء من الدنيا سوى مائة دينار واستحيت منه ودمعت عيناى فنظر إلي وقد عسر عليه حالي، ثم قال للتجار: أشهدوا على أنني بعثت جميع ما في الجراب من أنواع الجواهر والمعادن لهذا الرجل بمائة دينار وأنا أعرف أنه يساوي كذا وكذا ألف دينار وهو هدية مني إليه فأعطاني الخرج والجراب والبساط وجميع ما عليه من الجواهر فشكرته على ذلك وجميع من حضر من التجار أثنوا عليه ثم أخذت ذلك ومضيت به إلى سوق الجواهر وقعدت أبيع واشتري وكان من جملة هذه المعادن قرص تعويذ صنعه المعلمين وزنته نصف رطل وكان أحمر شديد الحمرة وعليه أسطر مثل ديبب النمل من الجانبين ولم أعرف منفعته فبعت واشتريت مدة سنة كاملة ثم أخذت قرص التعويذ وقلت: هذا له عندي مدة لا أعرفه ولا أعرف منفعته فدفعته إلى الدلال فأخذه ودرا به ثم عاد وقال: ما دفع واحدٌ من التجار سوى عشرة دراهم فقلت له: ما أبيع به هذا القدر فرماه في وجهي وانصرف. فعرضته للبيع يوماً آخر فبلغ ثمنه خمسة عشر درهماً فأخذته من الدلال مغضباً ورميته عندي فبينما أنا جالس يوماً إذ أقبل علي رجل فسلم علي وقال لي: عن أذنك هل أقلب ما عندك من البضائع؟ قلت: نعم وأنا يا أمير المؤمنين مغناطٌ من كساد قرص التعويذ فقلب الرجل البضاعة ولم يأخذ منها سوى قرص التعويذ فلما رآه يا أمير المؤمنين قبل يده وقال: الحمد لله ثم قال: يا سيدي أتبيع هذا؟ فازداد غيظي وقلت له: نعم فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت له: كم تدفع فيه أنت؟ قال عشرين ديناراً، فتوهمت أنه يستهزيء بي فقلت: اذهب إلى حال سبيلك فقال لي هو: أبخمسين ديناراً فلم أخاطبه فقال: ألف دينار هذا كله يا أمير المؤمنين وأنا ساكتٌ ولم أجبه وهو يضحك من سكوتي ويقول: لأي شيء لم ترد علي؟ فقلت له: اذهب إلى حال سبيلك وأردت أن أخاصمه وهو يزيد ألفاً بعد ألف ولم أرد عليه حتى قال: أتبيعه بعشرين ألف دينار؟ وأنا أظن أنه يستهزيء بي فاجتمع علينا الناس كلٌ منهم يقول بعد وأن لم يشتري فنحن الكل عليه ونضربه ونخرجه من البلد فقلت له: هل أنت تشتري أو تستهزيء؟ قلت له: أبيع قال: هو بثلاثين ألف دينار وخذها وأمضي البيع وأنا أخبرك بفائدته ونفعه فقلت: بعثك فقال: الله على ما تقول وكيل. ثم أخرج الذهب وأقبضني إياه وأخذ قرص التعويذ ووضع في جيبه ثم قال لي: هل رضيت؟ قلت: نعم فقال أشهدوا عليه أنه أمضى البيع وقبض الثمن ثلاثين ألف دينار ثم إنه التفت إلي وقال: يا مسكين والله لو أخرت البيع لزدناك إلى مائة ألف دينار بل إلى مائة ألف دينار، فلما سمعت يا أمير المؤمنين هذا الكلام نفر الدم من وجهي وعلا عليه هذا الاصفرار الذي أنت تنتظره من ذلك اليوم ثم قلت له: أخبرني ما سبب ذلك وما نفع

هذا القرص؟ فقال: اعلم أن ملك الهند له بنت لم ير أحسن منها وبها داء الصداع فأحضر الملك أرباب الأقالم وأهل العلوم والكهان فلم يرفعوا عنها ذلك فقلت له وكنت حاضراً بالمجلس: أيها الملك أنا أعرف رجلاً يسمى سعد الله البابلي ما على وجه الأرض أعرف منه بهذه الأمور فإن رأيت أن ترسلني إليه فأفعل فقال: اذهب إليه فقلت له: أحضر إلي قطعة كبيرة من العقيق ومعها ألف دينار وهدية فأخذت ذلك وتوجهت إلى بلاد بابل فسألت عن الشيخ فدلوني عليه ودفعت له المائة ألف دينار والهدية فأخذ ذلك مني ثم أخذ قطعة العقيق وأحضر حكاكاً فعملها هذا التعويد ومكث الشيخ سبعة أشهر يرصد النجم حتى اختار وقتاً لكتابته وكتب عليه هذه التلاسم التي تنظرها ثم جئت به إلى الملك.

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفي الليلة الخمسين بعد التسعمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الشاب قال لأمير المؤمنين: إن الرجل قال لي: أخذت هذا التعويد وجلت به إلى الملك فلما وضعه على ابنته برنت من ساعتها وكانت مربوطة في أربع سلاسل وكل ليلة تبييت عندها جارية فتصبح مذبوحة فمن حين وضع عليها هذا التعويد برنت لوقتها ففرح الملك فرحاً شديداً وخلع علي وتصدق بمال كثير ثم وضعه في عقدها فاتفق أنها نزلت يوماً في مركب هي وجواربها تنتزه في البحر فمدت جارية يدها إليها لتلاعبها فانقطع العقد وسقط في البحر فعاد من ذلك الوقت العارض لابنة الملك فحصل ما حصل للملك من الحزن فأعطاني مالا كثيراً وقال لي: اذهب إلى الشيخ ليعمل لها تعويداً عوضاً عنها فسافرت إليه فوجدته قد مات فرجعت إلى الملك وأخبرته فبعثني أنا وعشرة أنفس نطوف في البلاد لعلنا نجد لها دواء فأوقعني الله به عندك فأخذني يا أمير المؤمنين وانصرف فكان ذلك الأمر سبباً للاصفرار الذي في وجهي ثم أتتني بغداد ومعها جارية من مالي وسكنت في الدار التي كنت فيها فلما أصبح الصباح لبست ثيابي وجئت إلى بيت طاهر بن العلاء لعلني أرى من أحبها فإن حبها لم يزل يتراد في قلبي فلما وصلت إلى داره رأيت الشاب قد انهدم فسألت غلاماً وقلت له: ما فعل الله بالشيخ؟ فقال: يا أخي أنه قدم عليه في سنة من السنين رجلاً تاجرٌ يقال له أبو الحسن العماني فأقام مع ابنته مدةً من الزمان ثم بعد أن ذهب ماله أخرجته الشيخ من عنده مكسور الخاطر وكانت الصبية تحبه حباً شديداً فلما فارقها مرضت مرضاً شديداً حتى بلغت الموت وعرف أباهما بذلك فأرسل خلفه في البلاد وقد ضمن لمن يأتي به مائة ألف دينار فلم يره أحد ولم يقع له على أثر وهي الآن مشرفة على الموت قلت: وكيف حال أبيها؟ قال: باع الجوارب من عظم ما أصابه فقلت له: هل أدلك على أبي الحسن العماني؟ فقال: وبالله عليك يا أخي أن تدلني عليه فقلت له: اذهب إلى أبيها وقل له: لي البشارة عندك فإن أبا الحسن العماني واقفٌ على الباب.

فذهب الرجل يهرول كأنه بغلٌ انطلق من طاحون ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ فلما رأني رجع إلى داره وأعطى الرجل مائة ألف دينار فأخذها وانصرف وهو يدعو لي ثم أقبل الشيخ وعانقتي وبكى وقال: يا سيدي أين كنت في هذه الغيبة هلكت ابنتي من أجل فراقك فأدخل معي إلى المنزل فلما دخلت سجد شكراً لله تعالى وقال الحمد لله الذي جمعنا بك ثم دخل لابنته وقال لها شفاك الله من هذا المرض فقالت يا أبت ما أبرأ من مرضي إلا إذا نظرت وجه أبي الحسن فقال إذا أكلت أكله ودخلت الحمام جمعت بينكما فلما سمعت كلامه قالت أصحح ما تقول قال لها والله العظيم أن الذي قلته صحيحٌ فقالت والله إن نظرت وجهاً ما أحتاج إلى أكلٍ فقال لغلما: أحضر سيدك فدخلت فلما نظرت إلى أمير المؤمنين وقعت مغشياً عليها فلما أفاقت أنشدت هذا البيت:

وقد يجمع الله الشيتيين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ثم استوت جالسة وقالت: يا سيدي ما كنت أظن أنني أرى وجهك إلا أن كان مناماً، ثم أنها عانقتني وبكت وقالت يا أبا الحسن الآن أكل وأشرب فأحضروا الطعام والشراب، ثم صرت عندهم يا أمير المؤمنين مدةً من الزمان وعادت كما كانت عليه من الجمال، ثم أن أباهما استدعى بالقاضي والشهود وكتب كتابها علي وعمل وليمة عظيمة وهي زوجتي إلى الآن.

ثم أن ذلك الفتى قام من عند الخليفة ورجع إليه بغلام بديع الجمال بقدر رشاقة واعتدال وقال له قبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين فقبل الأرض بين يدي الخليفة فتعجب الخليفة من حسنه وسيح خالقه، ثم أن الرشيد انصرف هو وجماعته وقال يا جعفر مما هذا إلا شيءٌ عجيبٌ ما رأيت ولا سمعت بأعرب منه. فلما جلس الرشيد في دار الخلافة قال: يا مسرور قال: لبيك يا سيدي قال أجمع في هذا الإيوان خراج البصرة وخراج بغداد وخراج خراسان فجمعه فصار مالا عظيماً لا يحصى عدده إلا الله تعالى. ثم قال الخليفة: يا جعفر قال لبيك قال أحضر لي أبا الحسن قال سمعاً وطاعة ثم أحضره فلما حضر قبل الأرض بين يدي الخليفة وهو خائفٌ أن يكون طلبه بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله فقال الرشيد: يا عماني قال له لبيك يا أمير المؤمنين خلد الله نعمه عليك، فقال له اكشف هذه الستارة، وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الأقاليم ويسلبوا عليه الستارة،

فلما كشف العماني الستارة عن الإيوان اندهش عقله من كثرة المال فقال الخليفة يا أبا الحسن أهذا المال أكثر أم الذي فأتك من قرص التعويد فقال له بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر بأضعافٍ كثيرة.

قال الرشيد: أشهدوا يا من حضر أنني وهبت هذا المال لهذا الشاب، فقبل الأرض واستحى وبكى من شدة الفرح بين يدي الرشيد، فلما بكى جرى الدمع من عينيه على خده فرجع الدم إلى محله فصار وجهه كاليدر ليلةٍ تمامه، فقال الخليفة لا آله إلا الله سبحانه من يغير حالاً بعد حال وهو باقٍ لا يتغير، ثم أتى بمرآة وأراه وجهه فيها فلما رآه سجد شكراً لله تعالى، ثم أمر الخليفة يحمل إليه المال وسأله أنه لا ينقطع عنه لأجل المنادمة فصار يتردد إليه إلى أن توفى الخليفة إلى رحمة الله تعالى، فسبحان الحي الذي لا يموت ذي الملك والملكوت.